الفضاء والمكان في السرد الروائي

وإشكال تحديد المصطلح عند النقاد العرب

د. محمد علي البنداق
كلية الآداب–الزاوية

المكان الفني هو"المكان اللفظي المتخيل، أي المكان الذي صنعته اللغة انصياعا لأغراض التخييل الروائي وحاجا ته"[1]، ولا يقصد به المكان الواقعي الخارجي، حتى ولو أشارت إليه الرواية أو عنته أو سمته بالاسم، إذ لا يراد به المساحة الجغرافية المحددة ذات الأبعاد المعينة، بل هو مكان تنسجه الكلمات وتستثيره اللغة بخصائصها الإيحائية، لذا ميز البنيويون بين المكان الخارجي، والمكان الروائي وقالوا إن "المكان الخارجي هو المكان الحقيقي المتموضع على الخارطة الجغرافية، وقد أطلقت عليه تسميات عدة: المكان الواقعي، والموضوعي والطبيعي والمرجعي... أما المكان الروائي فهو مكان متخيل"[2] يكون في خيال المتلقي وليس في العالم الخارجي، " له مقوماته الخاصة وأبعاده المتميزة"[3] وعلى الرغم من أ ن الروائي ينطلق في بناء روايته من مكان واقعي هندسي، فإنه ينسج لنا مكانا فنيا يتمرد على المفاهيم الهندسية إذ مهما برع الروائي في وصف المكان، فإنه لا يسعى إلى تصوير المكان الخارجي، بل يجسد مكانا فنيا يظهر في لوحة مصنوعة من الكلمات، تثير خيال المتلقي وتحمله لتصور المشهد.

إذا، فالمكان الفني يختلف عن المكان الهندسي الذي لا يمتلك أي قيمة فنية. إلا أنه شديد الصلة به ذلك أنه يحاكي موضوعا لا متناهيا هو العالم ا لخارجي الذي يفوق تصور العمل الأدبي له، لهذا تتعدد الأبعاد الجمالية للمكان الواحد و تتنوع بحسب وجهة نظر كل روائي.

ومن هنا تأكد لنا أن المطابقة بين هذين المكانين هي "ضرب من العسف، لأنها تفرغ النص الروائي من أحد أبعاده التخييلية، وتجرده من جماليته، وتحيل المكان إلى مجال

أجوف لا معنى له"[4]، لذا يمكننا القول أن المكان الفني أكبر وأوسع من أن يكون مكانا جغرافيا ذو أبعاد هندسية من طول وعرض وارتفاع مضافا إليه الزمان.

إنه مكان تخييلي نسجته اللغة، له مقوماته التخييلية التي أهلته لأداء دوره المحوري في تشكيل بنية النص الروائي.

انطلق كثير من النقاد الغربيين[5]، في دراستهم للمكان من تقسيمات وتصنيفات مختلفة[6]، ونظروا إليه من جهات متعددة، وقد سبقهم في العناية بالمكان والاهتمام به حد المبالغة روائيو القرن التاسع عشر، حتى أصبح سمة ميزت روايتهم، غير أن النظرة على المكان تغيرت في القرن العشرين، فلم يعد المكان ذلك العنصر المحايد الذي يقتصر وجوده كديكور أو كوسيط يؤطر الأحداث، فطبيعة الإحساس بالحياة هو الذي جعل أدباء القرن العشرين يغيرون أسلوب تعاملهم مع الواقع ومن ثم يغيرون تعاملهم مع المكان، إما بالتعتيم على صورة المكان والاقتصار على الإشارات العابرة الدالة عليه أو الإفراط في وصف التفاصيل، وبذلك أصبح المكان في الرواية الحديثة مصدر المعاني المتعددة واللامحدودة.

وفي الدراسات العربية مثل الفضاء الروائي حضورا هامشيا وملتبسا في أغلب الأحيان، والسبب في ذلك يعود إلى تعدد المناهج، ومعوقات الترجمة التي أحالته إلى مصطلح غير مستقر شهد تنازع الجانبين النقديين الغربي والعربي في تصوراتهما عن الفضاء، فالأول بالانطباعية والذاتية، والثاني بالتبعية القاصرة، ليترك باب البحث فيه مفتوحا للآخرين لعدم وضوح المصطلح.

والدراسات النقدية الحديثة وظفت مصطلح المكان أو الفضاء[7] توظيفا متباينا ومتداخلا، إما بالفصل بينهما، أو بالتداخل في أحيان كثيرة، و ألمح حسن نجمي إلى هذا التداخل في كتابه "شعرية الفضاء"[8]، مؤكدا على ضرورة تمييز الحدود بينهما، غير أن هذا التمييز لا يتضح تماما، ومنبها إلى ضرورة عدم الإلحاح على هذا الفصل قائلا: "إذا كان الفصل بين الفضاء والمكان ضروريا ويستلزم كل قراءة نقدية جدية القيام به فإنه بالمثل أن لا نلح عليه كثيرا، بل الأفضل أن نكتفي بتشغيل الفضاء على امتداد الدراسة ولا نذكر المكان إلا حيث ينبغي أن يذكر"[9]، وينتهي حسن نجمي منتقدا ترجمة كتاب غاستون

باشلار"جماليات المكان" حيث رأى أن الخلط بين مصطلح الفضاء والمكان بدأ في الخطاب النقدي العربي من هذه الترجمة (Espace) التي تعني المكان.

وفي معرض حديثه عن التداخل بين الفضاء والمكان يشير إلى اعتبار المكان أساسا للفضاء[10]، وما دام كذلك فكل مكان هو مصدر أفق لأمكنة أخرى، ووفق هذه المعطيات يستنتج الباحث أن الفضاء أوسع من المكان" ذلك لأن مفهوم الفضاء أكثر انفلاتا وشساعة من مثل هذه التحديدات الضيقة وإلا ماذا نقول بالنسبة لفضاء الحلم والموت والذاكرة والهوية..الخ[11].

الملاحظات التي أبداها حسن النجمي في كتابه السالف الذكر محاولا الفصل بين المكان والفضاء تؤكد درجة تداخلهما، بحيث يصعب فصلهما في الدراسة التطبيقية. ومن هنا فإن توظيف أحدهما أوتوظيفهما معا يخضع لما يتطلبه السياق، وهو ما ذهب إليه في دراسته التطبيقية التي تلت المقدمة النظرية، حيث أطلق مصطلح الفضاء على ما له علاقة بوجود متخيل أي تحول المكان في النص الأدبي إلى متخيل تعكسه الصورة، وهذا ما يوحي عنده أن الفضاء ليس المكان رغم التداخل المشار إليه وفي الوقت نفسه يربطه بالمكان، فهو عندما يتحول إلى الدراسة التطبيقية نجده يتحدث عن أمكنة بعينها أو يمزج بين المصطلحين عندما يقول: "إن الفضاء بالأساس يكون مكانا لمجرى وكل عنصر يتموقع فيه يبدي حركية هي بصورة ما باطنية"[12].

وفي كتابه بنية النص السردي وظف حميد لحميداني مصطلح المكان والفضاء في موضوع الفضاء الحكائي، بوصفه من مكونات الخطاب الروائي [13] وفي معرض التعريف بالفضاء في الحكي يذهب لحميداني إلى أن الدراسات لم تقدم مفهوما واحدا للفضاء ولذلك فهو عبارة عن مجموعة آراء مختلفة يحصرها في نقاط أساسية تتوزع على الفضاء كمعادل للمكان والفضاء النصي والفضاء الدلالي والفضاء كمنظور، وبالعودة إلى العنصر الأول فإنه يحصره في تصور خاص بالمكان حيث "يفهم في هذا التصور على أنه الحيز المكاني ويطلق عليه عادة الفضاء الجغرافي[14]، وتعد هذه الأشكال التي قدمها لتصورات الفضاء يعود لمحاولة التمييز بين الفضاء والمكان ويتفق مع حسن النجمي في الإشارة إلى صعوبة التمييز بين الفضاء والمكان إلا أن الفضاء ليس المكان، وما دامت الدراسة تركز هي

الأخرى على العمل الروائي فإن الروائي يتحدث عن المكان في الرواية الذي يفترض فيه أن يتغير بتغير الأحداث وتطورها في الرواية مما يعني أنه لا يمكن الحديث عن مكان واحد في الرواية بل هو مجموعة أمكنة "ومجموع هذه الأمكنة هو ما يطلق عليه فضاء الرواية" (15) مستوحيا هذا التصور لمفهوم الفضاء من دراسة غاستون باشلار" شعرية الفضاء" ورأي جيرار جينيت الذي عد المكان من مكونات الفضاء.

ومع التدقيق في التمييز يرى أن الفضاء أوسع وأشمل من معنى المكان، وكأنه يحصر وجه الخلاف بين المصطلحين في المساحة التي يغطيها كل منهما في العمل الروائي ويؤكد على ذلك بقوله وما دامت الأمكنة جميعا في الروايات غالبا ما تكون متعددة ومتفاوتة فإن فضاء الرواية هو الذي يلفها جميعا إنه العالم الواسع الذي يشمل مجموع الأحداث الروائية فالمقهى والمنزل أو الشارع أو الساحة كل واحد منها يعتبر مكانا محددا، ووفق هذا التحديد فإن الفضاء شمولي والمكان يمكن أن يكون فقط متعلقا بمجال جزئي من مجالات الفضاء"(16)

وعلى الرغم من أن الباحث يشير إلى ضرورة التمييز بين الفضاء والمكان فإنه يذهب إلى التركيز على المكان أكثر من الفضاء من حيث أنه –كما يرى– أحد المكونات المهمة للفضاء نظرا لحاجة الروائي إلى تأطير المكان. وهو ما يجعلنا ننتبه إلى أن الكاتب يجمع أحيانا بين الفضاء ومجموع الأمكنة ويحصر الفضاء في هذا الجانب الذي سماه سابقا الفضاء كمعادل للمكان، حيث يشير إلى "أن تكون الفضاء ليس مشروطا على الدوام بوجود مقاطع وصفية مستقلة للأمكنة.

إن هذا الفضاء يتأسس دائما حتى من خلال تلك الإشارات المقتضبة للمكان"(17). وفي هذا الجانب من الدراسة كثيرا ما يركز على مصطلح المكان وكأنه يشير إلى أولويته على الفضاء، وهو ما يبرر تركيزه على خصوصية المكان من حيث أهميته في تشكيل الأبعاد النفسية والاجتماعية التي يمكنها أن تستند على قراءة خلفية المكان، ولذلك فهو يرى أن أهمية التشكيلات المكانية، بالإضافة إلى أنواعها ومحتوياتها، تخضع لمقياس آخر يتعلق بالضيق والاتساع والانفتاح والانغلاق كما أن بعضها له خصوصيته في إنتاج العلاقات الدلالية والأبعاد النفسية.

إن أساس التمييز الذي أثاره لحميداني يستند إلى طبيعة مكونات العمل الأدبي وهو إذ يتحدث عن الرواية فإنه يشير إلى مكونات وعناصر العمل الروائي وكل هذه العناصر تشكل الفضاء الروائي الذي تتآلف في مستواه عناصر الحكي بينما يعد المكان جزءا من مجموع بقية المكونات وعلى الرغم من اعتباره إحدى المكونات فإنه يظل عنده المكون الأساسي للفضاء الروائي "لأن الرواية قابلة لأن تجعل كل الأمكنة مادة لبناء فضائها الخاص"[18]

ويعود حسن بحراوي إلى مصطلح الفضاء والمكان في بحثه في "بنية الشكل الروائي "[19] وإذ يختار دراسة المكان باعتباره عنصرا حكائيا فإنه يرى كذلك أن الفضاء مكون أساسي وهكذا يظل يجمع بين المصطلحين دون تمييز أحدهما عن الآخر إلا في حدود التعريفات والشواهد التي أوردها حيث ارتبط عنده المكان بالفضاء على اعتبار أن لكل مكان فضاءاته، وفي تحليله لتلك الفضاءات نجده يعتمد على مقاربات باشلار، ولوتمان.

وعندما يتحدث عن أماكن الإقامة الاختيارية فإنه يشير إلى أهمية فضاء البيت باعتباره مصدرا للمعاني والقيم، كما يستعمل في موضع آخر شعرية المكان وأثره في تشكيل الفضاء إذ"أنها تسلم بتأثير الوجود الإنساني على تشكيل الفضاء الروائي وتلح خصوصا على أهمية رؤية الإنسان للمكان الذي يأهله"[20]، فالكاتب في الفصول المختلفة يلح على الجمع بين الفضاء والمكان بشكل يجعل المفهوم متداخلا أحيانا ومنفصلا أخرى، وهو ما يفسر إشارته إلى عدم عناية الدراسات ببلورة مقاربة وافية ومستقلة للفضاء[21]، ورغم استعماله للمصطلحين، فإننا لا نتمكن من العثور على تعريف محدد لهما بل نجده أحيانا يطلق الفضاء على المكان والعكس، كما يعتبر تشكل الفضاء الروائي من الكلمات أساسا، فيجعله يتضمن كل المشاعر والتصورات المكانية التي تستطيع اللغة التعبيرعنها"[22]. فهو يتحدث عن فضاء لا يوجد إلا من خلال الكلمات وهو هنا يشيرإلى ما سماه الفضاء النصي في معرض إشارته إلى كون " الدراسة الشعرية الحديثة للمكان تبتدئ بإقصاء طائفة من الالتباسات وعلى رأسها رفع الالتباس عن العلاقة القائمة بين الفضاء النصي، والفضاء الحكائي والفضاء الواقعي"[23].

ونلاحظ أن هذه الدراسة لا تميز بين المكان والفضاء إلا في حدود ما استعمل من شواهد نظرية، ولا يعير اهتماما إلى التمييز بين المصطلحين، بحيث إنه يتحدث عن شعرية

المكان تماما كشعرية الفضاء، فيقول: " على أن شعرية المكان، كما مورست حتى الآن لاتستدعي الإمساك بجميع دلالات ومظاهر المكان في العمل الروائي "[24]

وفي دراستها لجماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا اعتمدت أسماء شاهين كليا على مصطلح "المكان " دون الالتفات إلى ما كان من إشكاليات في العلاقة بين المكان والفضاء أومناقشة تداخل المفاهيم في هذا الموضوع، حيث إنها ركزت على تعريف المكان وإبراز أهمية ارتباطه بالعمل الروائي واعتباره أحد العناصر في بنية الرواية[25] كما جمعت له من التعريفات ما رأت أنه يحيط بمصطلح المكان وتوظيفه في الخطاب النقدي. وهي في دراستها لروايات "جبرا" خصت بالتحليل المكان وعلاقته بالشخصية وبالجوانب النفسية والاجتماعية، وما تنتجه الأمكنة من أبعاد ودلالات، وتصل إلى أن المكان في الرواية "جزء أساسي من هندستها ومعماريتها"[26] كما يكتسب بعده وقيمه من خلال علاقته بالإنسان وبالتجارب الإنسانية فيه لذلك فهو يثير إحساسا ما بالمواطنة وإحساسا آخر بالزمن والمحلية" فقد حمله بعض الروائيين تاريخ بلادهم ومطامح شخوصهم فكان واقعا ورمزا وشرائح وقطاعات ومدنا وقرى، وكيانا نتلمسه ونراه أو كيانا مبنيا في المخيلة"[27]، وعندما تتناول تطور الاهتمام بالمكان في الرواية الحديثة، فإنها تضفي عليه نوعا من الشمولية بحيث يصبح المكان فاعلا في النص وعنصرا من خيال المبدع، وفي ذلك تقول: "أما المكان في الرواية الحديثة فقد انتقل به الروائيون نقلة نوعية عندما أصبحت صورته تتشكل من خيال الروائي لا مما يبصره في العالم المحيط بنا"[28]

وعند الحديث عن طبيعة المكان في روايات جبرا تذهب إلى أن الخطاب الروائي يشمل نوعين من التمثيل المكاني: الأول تمثيل الواقع الخارجي من خلال المحاكاة والآخر تمثيل الرؤية أو الفكرة لدى الفنان من خلال الموازاة وكلاهما يحتفظ بمميزات فردية خاصة به وفي الوقت نفسه يسهم في مكونات عامة تنتج عن التداخل بين النوعين" [29]، والملاحظ أن أغلب هذه الدراسات ركزت على المكان أو الفضاء في الخطاب الروائي.

وفي مؤلفها "بناء الرواية" اتجهت سيزا قاسم إلى التمييز بين الفضاء والمكان لكنها وفي الوقت نفسه أبقت على استعمال مصطلح المكان في الفصلين الثالث والرابع من كتابها[30]، غير أنها نبهت فيما يبدو إلى جانب مهم في سر التمييز بين المكان والفضاء،

فمن جهة فإنها رأت في تعدد المصطلح في اللغات الثلاث (العربية الانجليزية الفرنسية) في قولها: " وقد اكتفى النقاد الكلاسيكيون في اللغات الثلاث باستخدام كلمة المكان "Lieu/Place" للدلالة على كل أنواع المكان ،حيث لم يكن معنى الفراغ(الفضاء) بمفهومه الحديث قد نشأ بعد، وبينما ضاق الفرنسيون بمحدودية كلمة(Lieu) بدأوا باستخدام كلمة(Espace) (فراغ) لم يرض نقاد الانجليزية عن اتساع(Space/Place) (مكان/فراغ) وأضافوا استخدام كلمة(Location) (بقعة) للتعبير عن المكان المحدد لوقوع الحدث"[31]، غير أن مسالة التفريق بين كل هذه المفردات في الاستعمال الاصطلاحي لا يمكن أن يفسر طبيعته أو يضبط حدوده بصورة دقيقة ينتهي عندها لأن المشكلة لا تكمن في اللغة أو المصطلح في حد ذاته وإنما تكمن في التصور الذي يرتبط به كل من المكان والفضاء في الخطاب النقدي وإلى حد الآن لم نجد فارقا في المحاولات المختلفة إلا في المفهوم الشمولي، فالفضاء وحدة شاملة لكل عناصر العمل الأدبي، بينما عد المكان أحد مكونات الفضاء، ويمكن أن يضاف إلى ذلك مسألة الاختلاف بين المدارس النقدية في تناولها للمكان.

ولذلك فإن سيزا قاسم عندما تعود إلى وصف المكان في العمل الروائي تضفي عليه مفهوم الفضاء حيث تجعل منه عالما متخيلا تصنعه الكلمات فالروائي" عندما يبدأ في بناء عالمه الخاص الذي سوف يضع في إطاره الشخصيات. . يصنع عالما مكونا من الكلمات وهذه الكلمات تشكل عالما خاصا خياليا قد يشبه عالم الواقع وقد يختلف عنه وإذا شابهه فهذا الشبه شبه خاص يخضع لخصائص الكلمة التصويرية "[32].

ويبدو أن مفهوم الحد أوالجدل الناتج عن تقابل الأمكنة في النص يساير ما أوردته سيزا قاسم في ترجمتها: "مشكلة المكان الفني[33] لكتاب "يوري لوتمان"[34] وفي تقديمها للترجمة تقدم المكان في ضوء العلاقات الإنسانية المختلفة بالمكان باعتباره مكانا عاما وخاصا، وباعتباره لامتناهيا وفي ضوء العلاقات الإنسانية يعتبر علامة دالة على القيم المختلفة التي يمكن أن يسقطها الإنسان عليه، " فالذات البشرية لا تكتمل داخل حدود ذاتها ولكنها تنبسط خارج هذه الحدود لتصبغ ما حولها بصبغتها وتسقط على المكان قيمها الحضارية، ومن ثم يمكن القول إن هناك أماكن مرفوضة وأماكن مرغوب فيها. . فقد تكون

الأماكن الضيقة، المغلقة مرفوضة لأنها صعبة الولوج، وقد تكون مطلوبة لأنها تمثل الملجأ والحماية التي يأوي إليها الإنسان وتكون صورة للرحم"[35]

أما تناول لوتمان Lotman للمكان فإنه يضيف إليه كلمة الفنيArtistique وهو ما يعني اعتباره عنصرا في البنية الفنية للنص وبذلك "تصبح بنية المكان نموذجا لبنية مكان العالم وتصبح قواعد التركيب الداخلي لعناصر النص الداخلية لغة النمذجة المكانية"[36]

ولا تنتهي الإحاطة بالمكان الفني عند هذا الحد، إذ يضيف إلى ما سبق" مجموعة من الأشياء المتجانسة من المظاهر أو الحالات أو الأشكال المتغيرة. . تقوم بينهاعلاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة مثل الاتصال المسافة. . . الخ. ولذلك يجب أن تجرد هذه الأشياء من جميع خصائصها ما عدا التي تحددها العلاقات ذات الطابع المكاني التي تدخل في الحسبان"[37].

ومن ثم فإن هذه العلاقات المكانية ترتبط بنماذج على مستوى التفكير الإنساني وهي عندما تحضر في النص إنما تكون علامة دالة على ما تنطوي عليه من دلالات وقيم وتصبح صورة للعالم المتخيل أو المكان الفني، ويوضح لوتمان هذه العلاقات تأسيسا على بنيات لغوية ذات طابع مكاني مثل "أعلى وأسفل أو يسار ويمين أو قريب وبعيد... وتستخدم في بناء نماذج ثقافية لا تنطوي على محتوى مكاني فتكتسب هذه المفاهيم معاني جديدة مثل قيم وغير قيم، أو حسن وسيء..."[38].

ويتابع لوتمان هذه العلاقات على مستوى البنية اللغوية ذات الطابع المكاني فينظمها في مجموعة محاور أفقية وعمودية تعكس مختلف الأنساق الثقافية والنفسية والاجتماعية حيث "يمكن القول إن نماذج العالم الاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية العامة التي ساعدت الإنسان على إضفاء معنى على الحياة التي تحيط به، نقول إن هذه النماذج تنطوي دوما على سمات مكانية. . وقد تأخذ شكل تضاد ثنائي "السماء الأرض"... والمفاهيم التي توازي بين "القريب" والقابل للفهم والأليف والعائلي وتربط بين البعيد والمستعصي على الفهم"[39].

وقد ميز الدارسون مع تقدم الأبحاث المتعلقة بدراسة المكان بين المكان الروائي والفضاء الرواي، ولم تقدم هذه الدراسات للفضاء مفهوما واحدا، بل هناك جملة من التصورات المختلفة حوله نحو الفضاء النصي والفضاء الدلالي والفضاء كمنظور أو رؤيا والفضاء كمعادل للمكان"[40] إلا أن الفضاء كمصطلح عام يطلق على مجموع الأماكن التي تم بناؤها في النص الروائي، "إن مجموع هذه الأمكنة هو ما يبدو منطقيا أن نطلق عليه اسم فضاء الرواية، لأ ن الفضاء أشمل وأوسع من معنى المكان، والمكان بهذا المعنى هو مكون الفضاء"[41] إذا الفضاء هو مجموع هذه الأمكنة، فهو العالم الواسع الذي يشمل مختلف الأماكن المحددة، فالفضاء له صفة الشمولية، أما المكان فله صفة الجزئية. وبفضل سمة الاتساع التي يختص بها الفضاء، فإنه يشمل الأمكنة والعلاقات القائمة بينها والعلاقات بين الحوادث التي تجري فيها. ولذلك يعد "برمجة مسبقة للأحداث، وتحديدا لطبيعتها، فالفضاء يحدد نوعية الفعل وليس مجرد إطار فارغ تصب فيه التجارب الإنسانية " [42]، وهذا الفضاء هو عالم الرواية بأمكنتها وأحداثها وشخصياتها، والعلاقات القائمة بين مكوناتها.

وقد أثار "عبد المالك مرتا ض"مصطلحا آخر هو "الحيز"، وقد ساق في كتابه"في نظرية الرواية"[43] أمثلة متنوعة عن الحيز، تشترك كلها في صفة الحركة، فقال على سبيل المثال: فإننا إذا توسعنا في رؤيتنا إلى الحيز وهي رؤية تبدو لنا مشروعة، فإن كل حيز سيولد حيزا آخر مثله، أو أكبر منه وهو ما يمكن أن نطلق عليه "النشاط الحيزي" أو "الحيززة" إذ سينشأ عن المرور حركة ا لمشي، وهذه الحركة ينشأ عنها امتداد غير محدود لهذا الحيز، إذ قد يكون هذا الحقل ممتدا في الطول وممتدا في العَرْض وممتدا في الارتفاع إذا كان قائما في هضبة من الهضبات فالمرور نفسه يستحيل إلى حيز متحرك من وجهة، وممتد في عدة متَجَهات من وجهة أخرى.

وفي نظره فإن الحيز يمكن أن ينشأ من كل شيء يتحرك، فيمس أو يلمس، وإذا كان الجسم المادي هو كل ما يشغل حيزا من الهواء، فإن التغير الموقعي للحيز يخضع لحركة الجسم ومن ثم يكتسب الحيز صفة الانتقالية واللاستقرار .

أما الفضاء في نظره فهو أوسع من أن يشمل مساحة الحيز شمولا تفضيليا، وأشسع من أن يحتوي هذه المساحة الضيقة، أو المحدودة الأطراف التي نو د إطلاقها على شيء له

صلة بالمساحة الجغرافية دون أن يكونها، فالفضاءهذا يتصف بالشمولية والاحتواء لكل موجود.

ومن خلال ما ذكرناه يمكننا القول إن الحيز هوعنصر مركزي يقع بين المكان والفضاء قد يكون حيزا جغرافيا، بمعنى المكان إذا اكتسب صفة الثبات، وقد يمتد " فلا حدود له ولا انتهاء"[44] ليجاري مفهوم الفضاء.

إن مختلف الآراء التي تشكلت حول هذا الموضوع"المكان" هي عبارة عن اجتهادات متفرقة لها قيمتها العلمية، تحتاج إلى رؤية تنظيرية موحدة للخروج من عتمة المفهوم وبناء أرضية ذات أسس وقواعد تعتمد عليها مختلف الأبحاث كانطلاقة أولية في رحلتها.

وبناء على ما تقدم يرجع الباحث تعدد المصطلحات والتسميات التي عرفتها الدراسات في هذا الموضوع إلى تعدد صيغ بناء المكان، التي جعلت الباحثين يتخذون تسميات مختلفة له، يمكن أن نجمل كل ما تقدم في النقاط الآتية:

– أخذت الدراسات العربية – وتأثرا ببعض الجهود في سياق الأدب الغربي– تحاول الاقتراب من هذا المجال، فلم يزدد الاهتمام بعنصر المكان في الدراسات الروائية في عالمنا العربي إلا في العقدين الأخيرين، رغم ما حفلت به النصوص الإبداعية على مر العصور من دلالات متنوعة وغنية حول المكان سواء في مستوى علاقاته مع بقية المكونات السردية الأخرى، أو في مستوى آليات تشكيله فنيا، أو في وسائل تقديمه وتوظيفه دلاليا؛ إذ لم تكن علاقات المكان بغيره من عناصر النصوص القصصية – مثلا – معيارا للتقويم، أو جانبا من جوانب تمييز جمالياتها وكشف دلالاتها المتنوعة[45].

– انصب اهتمام معظم الدراسات الأدبية في مشهدنا العربي على عناصر السرد الأخرى، فأخذت تولي عناية خاصة بمنطق الأحداث، ووظائف الشخصيات وزمن السرد، وجماليات اللغة، بينما غفلت عن التركيز على عنصر المكان، فلم يحظ بما يستحقه من اهتمام، حقا قد يرد الحديث عنه بشكل عرضي عند بعض من درسوا مكونات السرد البنائية، ولكن هذا الفعل لا يتناسب مع ما لعنصر المكان من أهمية قصوى، وما يضطلع به من مهمة بالغة الدقة في تشكيل بناء النص السردي، وفي تلقيه، وفي تحديد دلالاته الذهنية والشعورية.

– شاع بين الدارسين في مجال تناول المكان في النصوص الأدبية خلط بين مصطلحات ثلاثة: (الفضاء، والمكان، والحيز)، فقد يطلق المكان الروائي دون قيد أو تحديد ليدل على المكان داخل النص الأدبي، سواء أكان مكانا واحدا أم عدة أمكنة، أما حين يراد التمييز بين مصطلح المكان ومصطلح الفضاء فإن مفهوم المكان ينحصر في المكان المفرد ليس غير داخل النص الأدبي، بينما يدل الفضاء على مجموع الأمكنة التي تدخل في شبكة من العلاقات فيما بينها داخل النص، كما يشمل أيضا الإيقاع المنظم للحوادث ووجهات نظر الشخصيات بحيث يبدو مصطلح الفضاء أكثر شمولا واتساعا من مصطلح المكان، ليغدو هذا الأخير جزءا من الفضاء وليس مساويا له، أما حسن بحراوي فلا يقيم تمييزا بين مصطلح الفضاء ومصطلح المكان؛ فقد يستخدم المصطلحين للتعبير عن دلالة واحدة، وإن كان قد حدد سلفا عنوانا فرعيا لكتابه هكذا: (الفضاء والزمن والشخصية)، مما يدل على أن الفضاء – من وجهة نظره– لا يشمل الزمن والشخصيات[46]؛ ويضيف عبد الملك مرتاض مصطلح (الحيز)، وهو مصطلح لم يتم تداوله كثيرا في مجال الدراسات السردية، ولكنه يميل إلى استخدامه مبينا وجهة نظره في التمييز بين ثلاث مصطلحات، فمصطلح (الفضاء)من وجهة نظره رغم أنه يشيع في الكتابات النقدية العربية المعاصرة لكنه يراه قاصرا بالقياس إلى مصطلح (الحيز)؛ لأن (الفضاء) يحيل بالضرورة إلى الخواء والفراغ، بينما (الحيز) يحيل إلى الحجم والشكل بما فيهما من وزن ومسافة، على حين أن مصطلح (المكان) يقصره على الموقع الجغرافي في أضيق مساحة له في العمل الروائي[47]، وكأن (الحيز) أشمل وأوسع ولا نهاية له، بينما (الفضاء) قاصر؛ لأنه خواء وفراغ، وترى هذه الدارسة أن محاولة الدكتور مرتاض – على الرغم من جهده المشكور– لا طائل من ورائها، كما أن الحدود التي قدمها الدكتور مرتاض للتفريق بين هذه المصطلحات غير دقيقة، وإنما هي محاولة اجتهادية أملتها رغبة ملحة وشغف غير واضح في طرح مصطلح (الحيز) بديلا عن (الفضاء والمكان) بوصفه من المصطلحات التي كثر تداولها في سياق أدبيات التراث العربي.

الهوامش :

(1) – سمر روحي الفيصل: بناء الراية العربية السورية ، ص251

(2) – مرشد أحمد: البنية والدلالة في روايات ابراهيم نصر الله ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ،2005، ص 129

(3) – سيزا قاسم، بناء الرواية ، ص 74

(4) – السابق ص 74

(5) – من الذين اهتموا بدراسة الفضاء الروائي: (غاستون باشلار) في كتابه (جماليات المكان)، و(لوتمان) في (بنية النص الفني) ، و(جوروج ماتووي) في (الفضاء الإنساني) ، و(فيسجربر) في (الفضاء الروائي) ، و(جوليا كريستفا) في كتابها (النص الروائي) ، و(هنري ميتران). ينظر: حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ، ص33–40.

(6) – ومن الناحية النقدية فقد اختلفت آراء النقاد الغربيين وتعددت تصوراتهم حول تحديد مفهوم شامل لما سمته الشعرية الغربية مصطلح " الفضاء الحكائي" ، وسبب هذا الاختلاف يعود إلى عدم استقرار هذا المفهوم، فالأبحاث المتعلقة به لم تتطور بعد لتؤلف نظرية متكاملة عن الفضاء الحكائي ، مما يؤكد أنها أبحاث لا تزال في بداية الطريق ، ينظر: سيزا قاسم ، بناء الرواية ،دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ،1984 ، ص 63.

(7) – ينظر: جمال مجناح ، دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970 ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الحاج لخضر (باتنة) ، 2000 ، ص 15 .

(8) – ينظر: حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ،المغرب ،ط1 ، 2000. ص: 41.

(9) – حسن نجمي، شعرية الفضاء، ص 41 .

(10) – السابق:ص44.

(11) – السابق: ص 44.

(12) – السابق: ص 66.

(13) – حميد لحميداني. بنية النص السردي ، من منظور النقد الأدبي، ص: 53.

(14) – السابق: ص53 .

(15) – حميد لحميداني. بنية النص السردي. ص 63.

(16) – السابق: ص 63 .

(17) – السابق: ص 67 .

(18) – حميد لحميداني. بنية النص السردي. ص: 72.

(19) – حسن بحراوي. بنية الشكل الروائي، ص45 .

(20) – السابق: ص45 .

(21) – السابق: ص 25 .

(22) – السابق: ص 27 .

(23) – ومع هذه الإشارات الأولية لمصطلح الفضاء فإن الكاتب يستعمل مصلح المكان في عنونة الأبواب والفصول حيث يسمي الفصل الأول "بنية المكان في الرواية المغربية "وخلال هذا الفصل يخلط بين المصطلحين (المكان– الفضاء) ، ينظر: السابق: ص 25 – 27.

(24) – عبد الرحيم حزل. الفضاء الروائي ، مجموعة مقالات مترجمة ، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ط1، 2002، ص 6.

(25) – أسماء شاهين، جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ،ط1 ،2001 ، ص: 15.

(26) – السابق ص 16.

(27) – السابق ص 17.

(28) – السابق ص 21.

(29) – السابق ص 23.

(30) – سيزا قاسم، بناء الرواية ، ص 97 – 171.

(31) – سيزا قاسم، بناء الرواية، ص 101.

(32) – السابق ص 104 .

(33) – سيزا قاسم وآخرون، جماليات المكان ، سلسلة عيون المقالات، دار قرطبة، الدار البيضاء، المغرب، ط2 1988 ، ص 63.

(34)– السابق ص 69.

(35) – سيزا قاسم وآخرون، جماليات المكان، ص63.

(36) – السابق ص: 63 .

(37) – السابق ص 69 .

(38) – السابق ص 69– 70.

(39) – السابق ص 70 .

(40) – ينظر تفصيلات ذلك في: حميد الحمداني، بنية النص السردي، ص 54 وما بعدها.

(41) – حميد الحمداني، بنية النص السردي، ص62

(42) – سعيد بتكراد: السيميائيات السردية، منشورات الزمان، الرباط ،المغرب، 2001 ، ص137

(43) – عبد المالك مرتاض: في نظرية الرواية ، ص125

(44) – السابق ص125

(45) – ينظر: يمنى العيد، فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، دار الآداب– دط ت ، بيروت ، ص 109.

(46) – ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي ، ص27.

(47) – ينظر: عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ، ص141.